فستان زفاف

متعتُها في أن تجلس بالشرفة المطلة على البحر لا تضاهيها متعة، كانت تؤلف قصصًا كثيرةً، وسيناريوهات لحياتها، توزع الأدوار، وتضيف المؤثرات، وترتب الأحداث، حتى تصل إلى النهاية، وحينما لا تعجبها؛ تعاود تغيير الأحداث أو الأبطال، حرة هي في الاختيار، ولكن الواقع لم يشبه أيًّا من قصصها؛ فمع الأيام صارت خاضعةً لكل ما حولها، ولم تمتلك إرادةً للتغيير، فاجأتها نسمات الليل الباردة، لتسري في جسدها قشعريرة دفعتها للعودة لفراشها. ما إن ألقت بجسدها على الفراش؛ حتى تطاير النوم من عينيها وأعلن العصيان، ظلت تتقلب يَمنةً ويسارًا، حررت شعرها من ربطته؛ لتنساب خصلاته الكستنائية كالشلال لتتمدَّدَ إلى جوارها. حدقتْ في سقف الغرفة تفكر في لا شيء، إلى أن راودتها فكرة حمقاء وألحَّتْ عليها، حاولت الهروب، ولكن الفكرة كانت أقوى منها، نهضت من فراشها لتفتح ضلفةَ خِزَانتها التي تضع فيها المتروكات

التي لا تحتاج إليها، لتتسمر في مكانها من المفاجأة أمام ثوب زفافها بماساته اللامعة التي تزين وردات الجبير١ الرقيق، وتعلو الصدرَ تلك الفراغاتُ غير الكاشفة التي تزيد من أناقته، وقد وُزعت عليها وحدات الجبير المطرز بعناية ودقة، وكذلك ذيله الطويل ليكتمل مظهره الملكي، ويقبع تحته حذاؤه الساتان الأبيض المغطَّى بالوحدات نفسها.

تذكرت كم كان ثقيلًا، وكأنه كان يحمل كلّ الأيام التي ستمر بها. وَجَدَتْه مدلًّى في الخزانة، منتحرًا بعد أن كُسرت إحدى علاقاته، ليتدلى نصفه خارج حافظته وقد تغير لونه، انتشرت فيه نقاط صفراء متقاربة، وصار كعجوز خرقاء، حملته وقلبها يعتصره الحزن. سنوات طويلة لم تسأل عنه، وأيام كثيرة مرت، ولم تفكر حتى في الاعتناء به، بعد محاولتها انتزاعه، انكسرت علاقته الأخرى، وكأنما استسلمت لقدرها، وأعلنت هي الأخرى الرحيل، وما كانت إلا في النزع الأخير فقط، تتلمس يد أحدهم لتلفظه، وقد كان. عشرين سنةً واثنتين صَمَدَت، وآن أوان الرحيل. سقط الفستان أرضًا يصارع الإهمال، وكأنما يبكي بين يديها، ويلومها:

١ نوع من القماش، يتكون من وحداتِ وردٍ متصلة.

كيف لكِ أن تتركيني كلَّ هذا العمر؟ وكيف لك أن تأتي الآن وقد بدلني الإهمال وصرت إلى المشيب؟

جلستْ إلى جواره تتأمل تفاصيله، وتنزع عنه غطاءَه، لتجد جزءًا كبيرًا منه لا يزال يحمل البريق نفسه. عانقته ودموعها تنساب؛ وكأنما تعانقُ حبيبًا عاد بعد غياب، وتعود بنحيب مكتوم تلوم نفسها، وتتساءل كيف سارت الأمور بها على ما هي عليه؟ قامت تحمله من الأرض، وأرقدته مكانها على فراشها، وراحت تتأمله في صمتٍ شرد بها إلى مكانٍ بعيدٍ. إلى صوت أمها وهي توقظها؛ لتستعد ليومها الموعود ساعة أو قد تزيد، ويرسل بيت التجميل العاملات؛ لتجهيزها قبل موعد زفافها، تهمّ بالقيام، وتحتضن أمها بلا كلمةٍ واحدةٍ، لكنّ دموعها الدافئة على كتفها فضحتْ مشاعرَها، وكشفت عن توترها، رفعت والدتُها وجهَها تسألها:

خير؟!

ولكن حنين لم تعتَدْ كشف ما بداخلها أو التعبير، طمأنتها أمها، وخلعتها من حضنها، وربتت على كتفها من دون أن تناقشها. على العكس، تهربت حتى من النظر إلى عينيها،

وطلبت منها أن تسرع فالوقت يضيق. وما هي إلا نصف ساعة، وحضرت العاملات، وبدأن في الاعتناء بها بوصفها عروسًا. ملامح حنين الدقيقة وبشرتها وعيناها الواسعتان؛ قد ساعدت كلها في أن تكون ملكةً رقيقة لأعلى درجات الرقّة، ما إن دخلت أمها، لمتابعة الترتيبات النهائية، حتى ترقرقت عيناها بالدموع. كم هي مذهلة وجميلة التفاصيل! خرجت مسرعة؛ حتى لا تخرب تجميلها أو تلحظ حنين تلك الدموع.

ساعدتها البنات في ارتداء فستان زفافها، وأسدلن على وجهها قطعةً من التل بأطراف من الدانتيل الرقيق؛ لتزيد جمالها بالغموض، وحملت ورداتها البيضاء التي تحوي وسطها قلبًا أحمرَ أنيقًا، يتدلى ذيله الورديّ على فستانها الأبيض البهيج. طرقات رقيقة فتح بعدها البابَ رجلٌ في أواخر الخمسين يحمل ملامح هادئة وابتسامة عريضة متسائلًا:

آن الأوان لأتسلم أميرتي فهل من معترض؟

تعالت ضحكات البنات، وابتعدن كاشفات عني، لألتف لمواجهة أبي، لأرى ابتسامته، وأسمعه يكبِّر معجَبًا ويبتسم قبل أن يخطو خطوته؛ ليقبل جبيني، ويخبرني بكم يشبه اليوم

الأمس القريب! كم أنا شديدة الشبه بأمي يوم زفافها! هيا بنا فاليوم لا يجوز فيه التأخير. وتّرتني هذه الجملة؛ ففي جلباب أمي لا أريد أن أعيش.

تعلقتُ في يد أبي لينفتح الباب، وأسير في الممشى؛ لأجد منير يقف في نهايته بحلته السوداء الراقية، وملامحه الدقيقة، وتعلو الموسيقى، وتعلو معها نبضات قلبي، لتتواتر الأحداث، ويقبلني أبي على جبيني هامسًا في أذني:

حبيبتي، إلى هنا انتهى دوري، وعليَّ أن أسلِّمك ليد منير لتكوني ملكته وصاحبته.

ترك يدي ليمسك بها منير، وكأنما هو غريق تتلقفه الأمواج. رفع منديل التل عن وجهي، وقبلني على جبهتي، تعالت الزغاريد، وانخفضت الأضواء، لأرقص بين أحضانه بفستاني الأبيض المطرز بالأحجار ذوات البريق التي كلما سقط عليها شعاع ضوء تلألأت أكثر.

ظل منير يلاحقني بنظراته، ويعبر لي في همسه عن مدى حبه واشتياقه إلى أن يجمعنا البيت نفسه، ويحتوينا الفراش نفسه؛ فمنير حاله كحال سائر الرجال، الحب عنده جسد،

تملُّك، احتضان، وهو ما أرفضه أنا في قرارة نفسي، لكن كنت على أمل أن تغيره الأيام، ويتحول إلى المشاعر الأكثر رقيًّا، كم كانت ساذجة تلك المشاعر التي اقتنعت بها، والأحلام التي عشت فيها!

مر اثنان وعشرون عامًا كلمح بالبصر على زواجنا، علاقتي بمنير كانت غريبة؛ فقد كنت أميل إليه بشدة، وفي نفس الوقت كنت أرفض طريقته في التعبير عن حبه. كان لحياتنا أن تكون أكثر إثارةً وشغفًا، ولكن تكمن المشكلة في حبه الشديد للروتين، ميكانيكيته الشديدة في الأداء، قيوده التي يفرضها عليَّ، واقتناعي بأن الحب حرية، وأنه يجب عليك أن تطلق ما تحب، فإن عاد إليك فهو ملكك للأبد، وإن لم يعد فهو ليس مقدراً لك. لكنني وجدت نفسي كمن لا حيلة له، كم راودتني فكرة تغيير المصير، والانفصال عن منير، إلا أنني كنت سأبدو كمن يصمم على هدم حياته وإصابة من حوله بالحزن والمعاناة الغير المبررة لكل المحيطين بي إلا أنا!

والنتيجة إحساس بالفراغ؛ وعدم الرضا عن نفسي وعن كل شيء من حولي، بمرور الوقت أصبحت أتقبل كل ما كنت

أرفضه من قبل حتى إنني أدمنت الروتين، وأصبحت آلية الحركة والتنفيذ. لا عجب فيما آلت إليه أحاسيسي؛ مع هذه المشاعر كلها وصلت إلى الراحة والسكون، وقد يكون الاستسلام أو اليأس، هذا ما حدث.

أيام عدة، وتصبح ابنتنا الوحيدة رنين عروسًا، ولكنها تختلف في عَلاقتها بخطيبها؛ فكلاهما زميلان في السنة النهائية بكلية الألسن. هى أكثر جراءةً مني؛ فعندما تعرَّفَتْ إلى أنس، جاءت تصارح منير مباشرة، وتخبره بأن أحدهم يريد أن يتقدم إلى خطبتها، وأنه زميلها في نفس الجامعة ونفس القسم. ورغم أن هذا يخالف قواعد منير، إلّا أنه تعامل مع الموقف على غير ما توقعت تمامًا، ورحب بمقابلته؛ وافق على الخطبة بدون تعقيدات، انبهاري يتزايد بتغيرات منير، لا سيما أنه لمّحَ لأنس بضرورة عمل رنين، وأن يتركها تعمل لتكتسب المهارات والخبرات بعد الزواج، كان أشد ما لفت انتباهي وأثار في نفسي حنقًا؛ لم أتمكن من التغلب عليه، وهذا على عكس ما اشترطه عليَّ عندما تزوجنا؛ فقد رفض تمامًا أن أعمل، وقال إنَّ رسالة المرأة بيتها وزوجها ورعاية أبنائها!

رنين وأنس على قدرٍ عالٍ من التفاهم في أدق أمور حياتهما وإعداد منزلهما، ويتشاركان معًا صغائر الأمور، منير كان يعامل رنين كملكة لا أميرة، ويغير مفاهيمه فقط على عتبة عقلها؛ لا سيما ما يخصها وحدها، و أبقى أنا في نفس الخانة، وبنفس طريقة الأداء والمعاملة. فكرت برغم أن الوقت مر وأصبحت بعيدة جدًّا على التغيير إلا أن بصيصًا من الأمل دبَّ في أوصالي، وقررت أن أغير من نفسي، وأغير حياتي؛ فلا وقت غير مناسب لأن نحيا.

اليوم يوافق عيد زواجنا. وانتني فكرة أن أعدَّ له مفاجأةً على سبيل التغيير، البحث عن هدية مناسبة؛ فالهدية في معناها، لا بد وأن تعبر عن الاهتمام لصاحبها لا مجرد هدية فقط. حملت حقيبتي؛ وراجعت تاريخ بطاقتي الائتمانية، مفاتيح الشقة، وألقيت نظرة سريعة في المرآة إلى جوار باب الشقة؛ لأكتشف عدة خصلات بيضاء تناثرت في شعري، وعلى الرغم من أنني أعشقها إلا أنني قررت أن أمر على مركز التجميل؛ لصبغها ليكتمل التغيير. أخذت مفاتيح سيارتي، وانطلقت في طريقي، غلقت النوافذ، ضبطت أزرار التكييف، قناة الأغاني التي أحبها على الطريق، ربطت حزام الأمان، وعند أول

إشارة، توقف السير كعادته، ولكنَّ أصواتًا تعالت أمامي على بعد سيارتين أو أكثر. عراك بسبب تصادم يبدو بسيطًا، لكن لفت انتباهي الشخص المتشاجر

مَن؟ منير؟!

فتحت باب السيارة، وأسرعت بالنزول؛ فالرجل كاد أن يشتبك معه. وقبل خطوات لا تتعدى أربعًا أو خمسًا، وجدت سيدة تعدَّت الثلاثين بقليل؛ لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، تخرج من الباب المجاور لسيارة منير، وتنطلق مدافعة بصوتٍ عالٍ. وعندما تطاول عليها الشخص صاحب السيارة الأخرى، ينعتها بلفظ لا يليق، وجدت منير يلكمه لكمة في وجهه، ويخبره بأن عليه احترام زوجته، التي انتشَتْ في سعادةٍ لِلَكمته ورد فعله العظيم. تسمرتُ في مكاني، ومادت الأرض تحت قدميَّ. هل هذه إحدى قصصي الخيالية؟ كدت أسقط لولا أن الرجل؛ الذي كان جواري سارع بإسنادي إلى سيارته؛ التي خرج هو الآخر منها؛ ليشاهد المشادة أمامه، وسارعت زوجته بزجاجة مياه من السيارة، وراحت ترش الماء على وجهي لأستفيق. دموعي تسارعت وتسابقت على وجنتيّ كسيلٍ منهمرٍ.

لا يتردد في عقلي سوى كلمتين: - كيف؟ ومتى؟

انتهت المشاجرة، وبدأت السيارات في الحركة، وجدت نفسي بين السيارات، وكلما مر أحدهم لا أسمع سوى سِبابًا وشتائم، وكأنما أنا السبب في تعطل السير! وعندما فتحت باب سيارتي، انهالت عليَّ اللعنات والاستياء. أغلقتُ الأبواب، واحتضنت المقود، ورحت أبكي. ولم أنتبه إلا والضابط ينقر على زجاج السيارة بوجه غاضب، ويطلب مني أن أفتحه. ألا يستطيع المرء في هذا العالم أن يبكي دون أن يقاطعه أحد؟!

فتحت النافذة، ورفعت وجهي إليه بلا تعبير، تحول وجه الضابط إلى التعاطف بشكل لم أستوعبه لحظتها، ليطلب مني أن أتحرك لأني ببساطة أقف في منتصف طريق السير مما أربك السيارات. بدا على وجهي أني لم أستوعب كلمة واحدة مما قاله الضابط، مما ترتب عليه أن أشار لأحد معاونيه، وطلب مني النزول ليتولى هو القيادة، ويركن السيارة في مكان آمن. حتّى أستعيد قدرتي على القيادة، وأتمكّن من العودة إلى منزلي. مرّ ثلاث ساعات أو قد يزيد؛ وأنا صامتة لا أفكر في شيء سوى أنني لا بد؛ وأن أحيا ما تبقى لي من عمري؛ بلا

قيود أو حدود؛ فكم من وقتٍ مرَّ عليَّ جعلني فيه منير لا أنظر إلّا تحت أقدامي. تأكدت في هذه اللحظة أن كلّ حياتي ما هي إلا زيف.

أيقظني رنين الهاتف من خيالاتي. حاولت أن أتماسك وأتلقى المكالمة، ليأتي صوت محدثي:

أين أنتِ يا ماما؟ تأخرنا على موعد بروڤا الفستان؟

أجبت بكلمة واحدة أحفظها عن ظهر قلب:

حاضر؛ لا تقلقي فما زال أمامنا وقت. دقائق معدودة و أصل إلى المنزل.

قررت العودة إلى المنزل، وبعدها سأبحث عن الإجابات المناسبة والحلول.

نفضْتُ عني ذلك الكابوس، وما إن نظرت في المرآة؛ حتّى رأيت الحقيقة، فعيني متورمة من كثرة البكاء، والكحل الأسود ملأ وجهي فحوَّلني إلى (بعبع) غريب!

كانت حقيقة. لم يكن كابوسًا؛ فقد كان منير مَن رأيته، وكانت إلى جواره زوجته! نعم متزوج بأخرى. هذا هو واقعي الجديد.

أسرعتُ إلى الحمام قبل أن يلمحني أحدٌ بالمنزل، وفتحت صنبور الدش، ووقفت أغتسل من همومي لأخرُج نحو رنين، وكأن شيئًا لم يحدث، إلّا بعض الصداع، أو أي حجة قد تطرأ على عقلى حينها. تساقطت قطرات الماء الساخنة على رأسي، فذبذبت مشاعري وزلزلت أفكاري، وكأن مشاعرى تبخرت مع سخونة المياه. لم أعد أمتلك شعورًا محددًا؛ فكيف لمثلي ألا يكون الشعورُ المسيطرُ عليها هو الغيرة وما يحركها هو الحب؟ تساءلت في نفسي:

هل بعد كلّ هذا العمر لم أستطع أن أحب منير؟ نعم لم أحبه، وإلّا فما هذا الهدوء؟ أم هو ذلك الروتين الذي اعتدته حتى خفتت مشاعري؟ أو قد تكون تآكلت ولم يعد لها أى وجود!

شريط طويل كان يمرّ في مخيلتي لم أر للحبّ فيه وجودًا، كانت عَلاقتي بمنير؛ تحكمها الروتينية والطاعة ويملؤها الانصياع، حياة كنت أراها عادية، حتى برودة مشاعره وصمته وكثرة سفره. ما عدت أهتم بوجوده في البيت أو إلى جواري، شيء اعتدته واستسلمت له، ولكنّي لم أكن أرى إلّا معاناتي وحدي، فهل كان منير يعاني مثلي؟ هل التزم الصمت للأسباب

نفسها؟ غريب هذا العالم، ولكن عليَّ الآن أن أنتهي من تفاصيل زواج رنين، لا مزيد من الوقت في العمر؛ ليضيع فى الحصول على إجابات لأسئلتي. لم يعد يعنيني سوى سنوات عمري التي رحلت بلا حب. تلك السنوات التي ملأها الروتين وبرود المشاعر. كم هو غريب حال البشر! يفضلون المعاناة فى صمت؛ على الشجاعة والإقدام.

أصبح الغدُ هو الأقرب لأرى رنين عروسًا، الاستعدادات على أشُدِّها، يعود منير من سفرته المصطنعة ممتلئًا بالهدايا لرنين، ويسارع باحتضاني وتقبيلي كعادته؛ أجدت تمثيل انشغالي بتجهيزات الفرح، وتهربت من النظر إلى عينيه أو إعطائه فرصةً للحديث. حتى في آخر اللحظات التي كنّا نستعدّ فيها للنوم، تهربت مسرعةً بحجة أنني نسيت إتمام بعض الأمور والوقت يضيق، غفت عيناه وسمعت صوت شخيره؛ لأتأكد أنه راح في سُبات عميق، تسللت إلى فراشي، ولم يغمض لي جفن حتى الساعات الأولى من الصباح لأغفو ما يقرب من الساعتين، يوقظني صوت جرس المنبه يعلن بداية يوم فرحة عمري رنين، تتسارع الأحداث على أجمل ما يكون، لتخرج رنين بملامحَ ردَّتْ إليَّ مشاعر سنوات بعيدة كنت فيها أنا هي، يستقبلها أنس،

وتبدأ مراسم زواجهما كأبهى ما يكون، يهمس منير في أذني بأنه يشتاق إليَّ مثل يوم زفافنا! طلب أن يراقصني، وعندما احتضنني، همس بأذني:

ما أشبه اليوم بيوم زفافنا، وكأنه بالأمس القريب.

رفعت عيني أواجه عينيه؛ أخبره بأن الزمن لا يعود أدراجه؛ مهما نريد، ولكن ليس هناك وقت متأخر لإصلاح أي شيء. لم يفهم ما أعنيه؛ كعادة الأشياء الجميلة في الحياة، تنتهي سريعًا، ليتوجَّها إلى المطار لقضاء شهر العسل كما خططا معًا. أعود أدراجي بعد زفاف ابنتي. بانتهاء المراسم، تركت منير وسرت بعيدًا. لاحقني ممسكًا بذراعي متسائلًا:

«السيارة ليست من هذا الاتجاه»

ضحكت وأجبته:

ولكن هذا هو طريقي وحدي، من قال إن لنا نفس الطريق؟ منير أنا لن أستطيع إكمال حياتي في هذا الزيف.

أغمضت عيني ليهدأ قلبي بعد كل ما كتمه من مشاعر منذ زمن طويل، وعاودت إخباره أنه آن الأوان لأن يأخذ كلٌّ منا طريقه.

اذهب حيث تكون راحتك واتركني لعل روحي تتحرَّر. أنت إلى جوارها أجمل وأكثر بريقًا.

نظر إليَّ وكل إشارات جسده كانت تشير لتوتره وأنه لم يتوقع رد فعلي، ولا يود الإجابة كعادته، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا؛ فقد كنت أنا وحدى وما أريد!

لم يجادل ولم يكلِّفْ نفسه تقديم تفسيرًا، وإنما اكتفى بأن أكَّد أني مهمَّةٌ له مثلها أو يزيد، كما أنه أجاد موازنة الأمور بيننا بدليل أني حتّى لم أكتشف هذا إلا صدفةً! وهو على هذه الحال لأكثر من خمس سنوات. بالرغم من بساطة تبريره إلا أنه كان كوقع سكين غرز في مقتل؟ ابتسمت لسذاجتي ولقنته الدرس الأخير، فلو كنت أحبه حقًّا لشعرت كأي امرأةٍ بتغيير أو غيرة؛ ولبحثت وراءه وتشممت عطره وراقبت تصرفاته.

استدرت أواجهه لأخبره:

منير، كنت سجاني وكنت أنا عصفورك الجميل. أما الآن فآن الأوان أن أحيا ما تبقى لي من عمر كما أريد، حرة بلا قيود أو روتين. علاقتنا لم تحتوِ الدفءَ الكافي لتكتمل.

طأطأ رأسه، وقبل أن ينطق بأيّة كلمة، رافقتني ابتسامتي،

وغادرت من سِنِي حياتيّ الماضية، أدرت ظهري، ولم أعبأ بأحد أو بشيء.

- سعادة روح -

ابتسمت ولم تعبأ لأمرِ أحد

ملأت دُنياها حبًّا، وكأنما لم تُخذل أبدًا

صلَّتْ، كأنما سَتموتُ غدًا

استحقت أن تكون سعيدة.

obeikandl.com